الشَّرقُ والغَربُ
واستعادةُ الثِّقَةِ المفقودةِ الشَّرقُ والغَربُ واستعادةُ الثِّقَةِ المفقودةِ

محمود حَمْدِي زَقْزُوق(*)

أودُّ في البدايةِ أن أُعبِّرَ عَنْ سُرُوري للمُشَارَكةِ في هَذا اللِّقَاءِ، وشُكْري لحضَراتِكُم جَميعًا لمِا أظْهرتُموهُ من تجاوبٍ للموضوعِ المطروحِ، وأرجو أن تَتَحمَّلوا صَراحِتي في كَـلِمَتِي التي سَأُلْقِيهَا عَلى حَضَرَاتِكُمْ، لمِـَا قَدْ تَشْتَمِلُ عَليهِ مِنْ نَظْرةٍ نَقْديةٍ، وَكُـلُّ مَا يَهُمُّني هو أن نَلْتَقِيَ معًا في الشَّرقِ وفي الغربِ على أرضيةٍ مُشْتركةٍ؛ من أجلِ التَّعاونِ في كلِّ ما فيهِ تقديمُ الخيرِ لهذا العالمِ الذي نعيشُ فيه، والتزامًا مِنِّي بالوقت المُحدَّدِ لي في حدود ١٥ دقيقةً، أُقدِّم إليكم مُلَخَّصًا لِلْبَحْثِ الَّذي أعْدَدتُهُ لهذا اللِّقاءِ، وَهُوَ يَسْتَغْرِقُ في إلْقَائِه سَاعةً عَلَى الأقَلِّ، وَلَكِنَّي سألتزمُ بالوقتِ .

إنَّهُ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ إقامةَ تعاونٍ بنَّاءٍ بين الغربِ والعالمِ الإسلامي يَقُومُ على أساسٍ مِنَ الثقةِ المتبادَلةِ بين الجانبَينِ، من شأنهِ أنْ يُؤدِّيَ إلى التَّغَلُّبِ على الكثيرِ من المُشْكلاتِ القائمةِ بينهمْ، ويُؤدِّيَ بِالتَّالي إلى الإسهامِ في صُنْعِ الإسلامِ في العالمِ الَّذي هو عَالَمُنا جميعًا، والسُّؤَالُ المَطْرُوحُ هو: كيف يُمْكنُ إعَادةُ بِناءِ الثِّقةِ بين العالمِ الإسلاميِّ والغربِ حتَّى يمكنَ الوصولُ إلى الهدفِ المنشودِ؟ هذا هو السُّؤالُ الكبيرُ، وحتَّى يمكنَ الإجابةُ عن السُّؤالِ المَطْروحِ؛ فإنَّ من الملائمِ أن نُقسِّم هذا الموضُوع إلى العناصرِ الآتيةِ:

١- ما هي الشُّروطُ الأساسيةُ -بصفةٍ عامةٍ- لبناءِ الثقةِ بينَ مجموعتينِ بَشريتينِ؟

٢- هلْ كانتْ هناكَ ثقةٌ أصلًا بين العالمِ الإسلاميِّ والغربِ وعلى أيِّ أساسٍ قامَتْ؟

٣- مَا هِي الأسْبابُ التي أدَّتْ إلى ضياعِ هذهِ الثقةِ بينَ الجانبينِ؟

٤- ما هِي معوِّقاتُ استعادةِ بناءِ الثِّقةِ بينَ الجانبينِ؟

٥- كيفَ يُمكنُ إعادةُ بناءِ الثِّقةِ بينَ العَالمِ الإسلاميِّ والغَربِ؟

وفيما يَلي تفصيلُ القوْلِ فى الإجابةِ عن هذهِ الأسئلةِ الخمسةِ:

أوَّلًا: شروطُ بناءِ الثقةِ:

يَتوقَّفُ بناءُ الثقةِ بين أيِّ مجموعتينِ بشريتينِ بصفةٍ عامةٍ على عدةِ أمورٍ هامةٍ نُلَخِّصهَا فِيما يلى:

(أ) الاعترافُ بالآخَرِ، والتعاملُ معهُ على أساسٍ من النِّدِّيَّةِ والمساواةِ: ويُعَدُّ ذلك شرطًا أساسيًّا لا يمكنُ التَّخلِّي عنه على الإطلاق، فالبديلُ لذلك هو إلغاءُ

الآخَرِ واعتبارُ وجودِه مثلَ العدمِ، سواءً بسواءٍ، وبالتَّالي لا يكونُ هناكَ طَرَفانِ يعترفُ كلٌّ مِنْهُما بالآخَرِ، بلْ يكونُ هناكَ طرفٌ واحدٌ يأمرُ فيُطَاع أمْرُهُ، ويُمْلِي إرَادَتَه كمَا يَشَاءُ دونَ السَّماحِ بأيِّ اعتراضٍ، وفي هذهِ الحالةِ لن يكونَ هناكَ حديثٌ عن شيءٍ اسمُهُ بناءُ الثِّقةِ بينَ الجانبَينِ المعنيَّينِ.

(ب) الاحترامُ المتبادَلُ: لا يَكْفِي إطلاقًا مُجرَّدُ الاعترافِ بالآخَرِ، بل يَجبُ - إذا أُريدَ أنْ يكونَ هناكَ حدٌّ أدْنَى مِنَ الثقةِ بينَ الجانبين - أنْ يكونَ هناكَ احترامٌ متبادَلٌ بيْنَهُما.

وهَذا يَعْنِي أنَّ عَلَى كُلِّ طرفٍ أنْ يحترمَ الآخَرَ، أي يحتَرِمَ ثَقَافَتَهُ ودِينَهُ وعَاداتِهِ وتقاليدَهُ وخُصوصيَّاتِه الحضاريَّةَ، وبصفةٍ عامَّةٍ يحترمُ حقوقَهُ الإنسانيةَ.

وهذا الاحترامُ المتبادَلُ يُعدُّ البدايةَ الحقيقيةَ لأيِّ حِوارٍ أو تفاهُمٍ أو تعاونٍ بينَ الجانبينِ، معَ الأخذِ في الاعْتِبارِ بأنهُ إذا كـــانَ الاحتـــرامُ المتبادلُ لا يعني القبولَ بمواقفِ الآخَرِ؛ فإنَّه مِنْ نَاحيةٍ أُخْرى يَعني استعدادَ كُلِّ طرفٍ للاستماعِ إلى الطرفِ الآخَرِ ، والتفكيرِ بروحٍ بنَّاءةٍ فيما يَعرِضُ مِنْ آراءٍ وما يُوجِّهُهُ مِنْ نقدٍ.

(جـ) الحوارُ بينَ الجانبينِ: يُعدُّ الحوارُ بينَ الأطرافِ المعنيةِ نتيجةً طبيعيةً للاعترافِ بالآخَرِ والاحترامِ المتبادَلِ بينهُما .

والحوارُ من شَأْنِهِ أن يُهيِّئَ الفرصةَ لِيتعرَّفَ كُلُّ جانبٍ على الطرفِ الآخَرِ، ويتَفَهَّمَ مَوَاقِفَهَ وظُروفَهُ وحضارتَهُ وعَقيدتَهُ وخُصوصياتِهِ الحضاريةَ، ومنْ جَانبٍ آخَرَ يُساعدُ هذا الحوارُ على إزالةِ الكثيرِ من سوءِ الفهمِ والأحكامِ المُسَبَّقَةِ والأفْكارِ الخَاطِئةِ لدَى كُلِّ طرفٍ عَنِ الطَّرفِ الآخَرِ ، كما يساعدُ على التعرُّفِ على ما يمكنُ أن يكونَ بينَ الجانبينِ مِن قَوَاسِمَ مُشْتركةٍ، سَواءٌ كانتْ تتعلَّقُ بالجوانبِ الحضاريةِ أو الدينيةِ أو التاريخيةِ أو غيرِها مِنْ جَوانبَ أُخْرى يُمْكنُ استثمارُها لما فيهِ مَصْلحةُ الطَّرفينِ.

(د) التَّسَامحُ معَ الآخَرِ: الحوارُ المشارُ إليهِ ليسَ أمرًا مقصودًا لِذاتهِ، وإنَّما هوَ السَّبيلُ القَويمُ لما يـترتَّبُ عـليهِ مـنْ نـتائجَ تَتَمثَّلُ فِـي التَّسامحِ الذي يُتيحُ الفرصةَ للتبادلِ الثَّقَافيِّ، والفَهْمِ الُمشْتَركِ، والتَّعَايُشِ الإيجابيِّ، الأمرُ الذي مِنْ شَأْنِهِ أنْ يُعَمِّقَ جُذُورَ التَّعاونِ بينَ الجانبينِ فى جميعِ المَجالاتِ.

(هـ) التَّعاونُ الُمشْتَركُ: لا شَكَّ أنَّ تَوفُّرَ المُنَاخِ المُشارِ إليهِ يَجْعَلُ السَّبيلَ مُمَهَّدًا أمَامَ بِنَاءِ الثقةِ بينَ الجانبينِ ودعمِ أواصرِ التعاونِ بينْهُما .

وهذا مِن شَأْنِهِ أنْ يُوسِّعَ آفاقَ هَذا التَّعاونِ لِيَشْمَلَ ليسَ فَقَطْ مَا يَتَعلَّقُ بالجانبَينِ المَعْنِيَّينِ، بَلْ يَتَعدَّى ذلكَ إلى دَوائرَ أَوْسَعَ تَشْمَلُ التَّعاونَ عَلى إِرْسَاءِ دَعائمِ السَّلامِ والاسْتِقرارِ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ الذي هُو عَالمُنا جَميعًا.

ثانيًا: هلْ كانتْ هُناكَ ثقةٌ أصلًا بينَ العالمِ الإسلاميِّ والغَرْبِ؟

أمَّا النُّقْطَةُ الثَّانيةُ التي نَودُّ أن نَبْحَثَها؛ فتتعلقُ بالسؤالِ عمَّا إذا كانتْ هُناكَ أصْلًا فِي المَاضِي ثقةٌ قائمةٌ بين العالمِ الإسلاميِّ والغربِ، وعَلى أيِّ أساسٍ قَامَتْ .

ونَحنُ فى البدايةِ نزعمُ أنَّ هناكَ بالفعلِ-على الأقلِّ فى التصورِ الإسلامي- ثقةً كانتْ قائمةً، وكانتْ تَرتكزُ عَلَى أسسٍ مَتينةٍ، ومِنَ المُفيدِ أن نتذكرَها الآنَ لعلَّها تَكونُ دافعًا للجانبينِ على تَنْشِيطِهَا والبِنَاءِ عليْهَا.

وقدْ كانتْ هَذِهِ الثِّقَةُ تقومُ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِنَا عَلَى أَسَاسينِ: دينيٍّ وثقافِيٍّ.

أمَّا الأساسُ الدِّينيُّ: فإنَّ الإسْلامَ-كماهومعروفٌ-يَطْلُبُ مِنَ المُسْلمينَ بكلِّ صَراحةٍ ووضوحٍ الاعترافَ بِكُلِّ الأدْيانِ السَّماويةِ السابقةِ.

ولا يجوزُ للمسلمينَ بِناءً على ذلكَ أن يُفرِّقُوا بينَ الأنبياءِ مِثْلَ: مُوسى وعِيسى ومحمد عليهم السلام، وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى هذا المعنى في سورةِ البقرةِ، قال تعالى: [قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون] [البقرة: ١٣٦].

والقرآنُ يطلبُ من أتْباعِ هذهِ الأديانِ المختلفةِ الابتعادَ عَنْ كلِّ مَا يَجلِبُ الشِّقاقَ والنِّزاعَ، وضرورةَ التركيزِ على التنافسِ المُثْمرِ في مجالِ الخيراتِ، قال تعالى: [وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون] [المائدة: ٤٨].

وقد شَعَرَ المُسْلمونَ منذُ البدايةِ بالتَّضامنِ مع المسيحيينَ الذين ينتمونَ مِثْلَهم إلى دينٍ سماويٍّ، وفي هذا الصددِ يُخبرنا القرآنُ الكريمُ بأنَّ المسلمينَ قدْ أصابهمُ الحُزنُ عندما وقعت معركةٌ بينَ الفُرسِ والرُّومِ الشَّرْقِيِّينِ، انهزمَ فيها الرومُ المسيحيونَ على يدِ الفرسِ الوثنيينَ، وعندئذٍ خفَّفَ عَليْهم القرآنُ وقْعَ هذهِ الصدمةِ مُبشرًا بأنَّ الرومَ سَيَنْتَصِرونَ في المرةِ القادمةِ، قال تعالى: [غلبت

الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون] [الروم: ٢ - ٤].

وقد جاءتْ هذهِ البِشارةُ فى القرآنِ فى سُورة تحملُ اسمَ «الرُّوم»، وقدْ حَدَثَ ذَلكَ النصرُ الموعودُ كما أخبَرَ القرآنُ، وفضلًا عن ذلك فإنَّ القرآن يُبينُ لنا أنَّ المَسِيحيِّينَ أقربُ الناسِ مودةً لِلْمُسْلِمينَ، يقول تعالى: [لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون] [المائدة: ٨٢].

أمَّا الأساسُ الثقافيُّ فإنَّه عندَ التَّأَمُّلِ الدَّقيقِ للتَّاريخِ نستطيعُ أن نتبينَ بوضوحٍ أنَّ الحضارتينِ الأوروبيةَ والإسلاميةَ في نَشْأتِهما وتَطَوُّرِهما لم يكونا في يومٍ من الأيامِ شَيْئينِ مُنفَصِلَينِ تمامًا؛ فقدْ قامتْ كلٌّ مِنْهُما على أساسٍ مِن التَّفَاعلِ الثَّقَافيِّ المُثْمِرِ، وَظَلَّتا مِن خِلالِهِ تتميزانِ بالحيويةِ.

وكانَتا مِنْ أجلِ ذلكَ قادرتينِ رغمَ كُلِّ الحُروبِ التي دارت بَيْنَهُما على البحثِ عن السَّلامِ، والبحثِ فِي الوقتِ نَفْسِه أيضًا عَنِ الحِمايةِ الفَعَّالةِ لِذَاتِيَّتِهِمَا.

فـمِنَ المـعْروفِ أنَّ المسلمينَ قـد اهتَمُّوا منذُ البدايةِ بالحضاراتِ الأُخْرى اليونانيةِ والفارسيةِ والهنديةِ، ودَرَسُوا بِصِفةٍ خَاصَّةٍ المؤلفاتِ الفلسفيةَ والعلميةَ اليونانيةَ التي تَرجَموها إلى اللغةِ العربيةِ وأَثْرَوها بتعليقاتٍ هامَّةٍ، ومِنْ خِلالِ البحثِ المُستَقِلِّ في كُلِّ ما تَعَرَّفُوا عليهِ مِن ثَقَافَاتٍ اسْتَطَاعُوا أن يُضِيفُوا أفكارًا وتَصَوُّراتٍ جديدةً، وأنْ تَكونَ لهم ثقافتُهُم وفَلسفتُهم الخاصةُ بِهِمْ .

وأوروبا من جَانِبِها قامتْ خلالَ القرونِ الثلاثةِ الأُولى من الألفيةِ الثانيةِ بترجمةِ مؤلفاتِ العلماءِ والفلاسفةِ العربِ إلى اللغةِ اللاتينيةِ، ومِن الجديرِ بالذِّكْرِ في هذا الصددِ أنَّ أوروبا قد تَعرَّفتْ لأولِ مرةٍ على الفلسفةِ اليونانيةِ عن طريقِ المؤلفاتِ العربيةِ، وفيما بعدُ في النصفِ الثَّاني من القرنِ الخامسَ عَشَرَ بدأَ الأُوروبيُّونَ ترجمةَ المؤلفاتِ اليونانيةِ مباشرةً من اليونانيةِ إلى اللغةِ اللاتينيةِ.

ولا ننسى في هذا الصددِ أن الأندلسَ وجزيرةَ صقليةَ كانا يُمثلانِ قناتينِ هامَّتينِ لنقلِ الثقافةِ الإسلاميةِ إلى أوروبا، والأمرُ الجديرُ بالذِّكْرِ في هذا المَقامِ أن الطلابَّ الأوروبيينَ كانوا يَتوافدونَ عَلى الأندلسِ في العصورِ الوسطى للدراسةِ في الجامعاتِ الإسلاميةِ، وبالمثلِ لا يزالُ الطلابُ المسلمون يلتحقونَ بالجامعاتِ الأوروبيةِ منذُ منتصفِ القرنِ التاسعَ عشَرَ حتَّى الآنَ دونَ انقطاعٍ.

ومن كُلِّ ذلكَ يَتضحُ أنَّ الثقةَ التي كانتْ قائمةً بين الجانبينِ كانتْ تعتمدُ على أُسسٍ دينيةٍ وثقافيةٍ متينةٍ، على الرغمِ مِنْ كُلِّ الحُروبِ والصِّراعَاتِ التي حَدَثَتْ بين الجَانبينِ.

ثالثًا: أسبابُ ضياعِ الثقةِ بينَ الجانبينِ:

إنَّنا لا نستطيعُ أن نقولَ إن هذهِ الثقةَ قد انهارتْ تمامًا بين الجانبينِ ولم يَعُدْ لهـَا وجودٌ، ولكنَّنا لا نُنْكِرُ أنها قد اهتزتْ بصورةٍ واضحةٍ، ويرجعُ ذلكَ إلى أسبابٍ عديدةٍ يرجعُ بعضُها إلى أسبابٍ تاريخيةٍ قديمةٍ، ويرجعُ بعضُهَا الآخَرُ إلى ظروفٍ وعواملَ حديثةٍ، ويُمْكِنُ تَلْخِيصُ أهمِّ هذهِ الأسبابِ والعواملِ في النقاطِ التاليةِ:

١- الفتحُ العربيُّ للأندلسِ، على الرغمِ من أنَّ هَذا الفتحَ قَد جـاءَ مـَعَهُ بتأثيراتٍ حضـاريـةٍ بالـغةِ الأهميةِ لأوروبَّا سَـاعَدَتْهَا في مسيرتِهَا في الانتقالِ مـــن العصرِ الوسيطِ إلى عصرِ النهضةِ والعصرِ الحديثِ.

٢- الحروبُ الصليبيةُ، ومَا صَحِبَهَا من تَخْريبٍ، وتَقْتيلٍ، ونهبٍ، وسلبٍ.

٣- الفتحُ العثمانيُّ للبَلْقانِ، وحِصَارُ العاصمةِ النِّمْساويةِ «فيينَّا».

٤- الغزوُ الاستعماريُّ لبلادِ العالمِ الإسلاميِّ في العصرِ الحديثِ من جانبِ كـُلٍّ مِنْ إنجلترا وفَرنْسا على وجهِ الخُصوصِ وبعضِ البلادِ الأُخْرى.

٥- الوعدُ الإنجليزيُّ لليهودِ عام ١٩١٧م بإنشاءِ وطَنٍ قوميٍّ لهُمْ في فلسطينَ عَلى حِسابِ سُكانِها الفلسطينيينَ الذينَ لا يَزالونَ مُشَرَّدِينَ في مُخْتَلِفِ دُولِ العـَالَمِ، ومَحْرومِينَ مِنْ أبـْسطِ حُقوقِ الإنسانِ.

٦- التحيُّزُ التَّامُّ لإسرائيلَ في صِراعِهَا مع العَربِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، والفِلسطينيينَ بِصفةٍ خَاصةٍ مُنذُ عام ١٩٤٨م حَتَّى الآن.

وَعَلَى الرغمِ مِنْ مُرورِ سبعةٍ وخمسينَ عامًا عَلى قضيةِ الصراعِ العربيِّ الإسْرَائِيليِّ؛ فإنَّ الغَرْبَ لم يَتَّخِذْ خُطُواتٍ حاسمةً لإنهاءِ هذا الصراعِ، والغربُ قادرٌ على ذلكَ لو أرادَ، ولَكنْ لَعَلَّهُ لا يُريدُ ذلكَ، رُبَّمَا لِإتَاحةِ الفُرْصَةِ لإسْرائيلَ لِلاسْتيلاءِ على كاملِ الأرضِ الفلسطينيةِ، وبالتَّالي لا يكونُ هُناكَ حَديثٌ عَنْ شَيءٍ اسْمُهُ القَضِيَّةُ الفَلَسْطِينيَّةُ.

ولا زِلْتُ أذكرُ عبارةً قَالها الفيلسوفُ الألمانيُّ المعروفُ «كارل ياسْبرز» عَقِبَ حَرْبِ عامِ ١٩٦٧م بَينَ العَربِ وإسْرائيلَ- حيثُ قالَ حينذاكَ: «إنَّنَا لَوْ تَخَلَّيْنَا عَنْ إسْرَائيلَ فإنَّ هذا يَعْني أنَّنا نَتَخَلَّى عَن الحضارةِ الغربيةِ، وَنَحنُ لا نُريدُ أنْ يَتَخَلَّى الغَرْبُ عَنْ إسْرَائِيلَ، وإنَّما نُريدُ مَوْقِفًا مُتَوازِنًا يُحَقِّقُ العَدْلَ والْكَرَامةَ الإنْسانيةَ للجَميعِ».

٧- الحربُ على العراقِ: تلكَ الحربُ التي تجاوزَت الشرعيَّةَ الدَّولِيَّةَ، وتَجاهَلَتِ الأَعْرَافَ المَرْعيةَ والمواثيقَ الدوليةَ، وبُنِيَتْ عَلَى مَجْمُوعةٍ مِنَ

المَزَاعِمِ الَّتي ثَبَتَ عَدمُ صِحَّتِها، وتبينَ أن هدفَ هذهِ الحربِ هو الهيمنةُ والسَّيطرةُ على بترولِ العراقِ من ناحيةٍ، وحمايةُ إسرائيلَ مِن ناحيةٍ أُخْرَى.

٨- التَّرويجُ في الإعلامِ الغَربيِّ للربطِ بين الإسلامِ والإرهابِ؛ فمن المُلاحَظِ -بعْدَ أحداثِ الحاديَ عشَرَ مِن سبْتمبر ٢٠٠١م- أنَّ هُناكَ اتجاهًا قويًّا في الغربِ يربطُ بينَ الإسلامِ و الإرهابِ.

وحقيقةُ الأمْرِ أنَّ الإرْهابَ موجودٌ في كُلِّ الحضاراتِ، وأنَّهُ أصبحَ ظاهرةً عالميةً، ولم يَكُنْ في يَوْمٍ مِن الأيَّامِ صناعةً إسلاميةً.

والأمرُ الجديرُ بالذكرِ: أنَّ قدرًا كبيرًا منَ الإرهابِ الحاصلِ اليومَ منْ جَانبِ بعضِ الجَمَاعات التي تنْسُبُ نَفْسَهَا للإسلامِ، نَتَجَ عَن احتِضَانِ الغَرْبِ للعناصرِ الخارجةِ عَن القانونِ، والمحكومِ عَلَيْها بِأَحْكَامٍ مُخْتَلِفَةٍ في البلادِ الإسلاميةِ، الأمْرُ الذي مَكَّنَهَا مِنَ التَّخْطِيطِ والتنظيمِ والتمويلِ لِأَعْمَالِها الإرْهَابِيةِ.

والولاياتُ المُتَّحدةُ الأمريكيةُ نَفْسُها تَعَاونَتْ مَعَ زَعيمِ تَنظيمِ القاعدةِ، وأَمَدَّتهُ بالمالِ والسِّلاحِ والتَّدريبِ لِرجالهِ في حَرْبِها ضدَّ الشُّيوعيةِ في أفْغانستانَ، كَمَا احْتَضَنَتْ مُفْتِي الجَماعاتِ المُتَطَرِّفةِ في مِصْرَ، ثُمَّ انقلبتْ عليهِ بعدَ ذلكَ وسجنَتْهُ، وسَاعَدتِ الولاياتُ المتحدةُ الأمريكيةُ على اتساعِ دائرةِ الإرهابِ بِفَتْحِ جَبْهةٍ جَديدةٍ في العِراقِ، مُتجاوزةً بِذلكَ إرادةَ المُجتمعِ الدَّوْلي؛ فالغَربُ إذنْ مَسْئولٌ مَسْئُوليةً أساسيةً عَن انتشارِ الإرهابِ اليومَ عَلَى نَحْوٍ مُخِيفٍ.

ومِن المعروفِ أنَّ أوروبا نَفْسَهَا -عَلى سبيلِ المِثَالِ- قَدْ عَانَتْ مِنَ الإرْهابِ الدَّاخِليِّ فَي النِّصفِ الثَّانِي مِنَ القَرْنِ العِشْرِين بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ في سِلْسِلَةٍ مِنَ العَمَلِيَّاتِ الإرْهابيةِ مِنْ جانبِ جماعاتٍ مُعينةٍ، لا يَزالُ بَعْضُهَا يُمَارسُ نَشَاطَهُ حتَّى اليومِ كَما هُوَ حَادثٌ في أيرلندا، وإقليمِ «البَاسك» في إسْبانيا.

ولم تَسْلمِ الولاياتُ المتحدةُ الأمريكيةُ نَفْسُها مِنَ الإرْهَابِ الدَّاخِليِّ قَبْلَ أَحْدَاثِ الحاديَ عشرَ مِنْ سِبْتَمبِر .

وَحَادثُ الهُجومِ عَلى بُرْجِ التِّجارةِ العالميِّ في «أوكلاهوما» خيرُ دليلٍ عَلَى ذلكَ ، كَمَا شَهِدَتِ السَّاحةُ العَالَمِيةُ أعمالًا إرْهَابيةً أُخْرى في أَماكنَ مُخْتلفةٍ، وَمِنَ الأَمْثلةِ عَلَى ذَلكَ: إطْلاقُ الغازاتِ السَّامَّةِ في مِتْرو الأَنْفاقِ في اليابانِ، وَمَقْتل رابين في إسرائيلَ، وهدمُ المسجدِ البابريِّ الأثريِّ في الهِنْدِ عَلى يدِ المُتطرِّفينَ الهُنْدُوسِ، وغيرُها مِن أَعمالٍ إرهابيةٍ لا تزالُ حاضرةً في الأذهانِ.

إنَّ الإسلامَ موجودٌ مُنذُ أربعةَ عَشَرَ قَرْنًا مِنَ الزَّمانِ، وكَما أنَّ الأديانَ الأُخْرى غيرُ مَسْئُولةٍ عن أيِّ عملٍ إرْهَابيٍّ يقومُ بهِ بعضُ أتْبَاعِهَا، فَكذلكَ الإسلامُ

غيرُ مَسئولٍ عنْ أيِّ عملٍ إرْهَابيٍّ يقومُ بهِ بعضُ المُسلمينَ، حتَّى وَإنْ رَفَعوا أيْضًا شِعاراتٍ إسْلاميةً.

إنَّ الإرهابَ لم يَكُنْ في السابقِ -ولنْ يكونَ في المستقبلِ أيضًا- سمةً مميِّزةً للإسْلامِ تُميِّزُه عن غيرِه مِنَ الأديانِ؛ فقد بَرهنَ الإسلامُ دائمًا على قُدرتهِ على السلامِ، ليسَ فقطْ خلالَ القرونِ العديدةِ التي شهدتْ عصرَ الازدهارِ الحضاريِّ للمسلمينَ، بلْ وفي كُلِّ عُصورِ التاريخِ الإسلامي، وقَدَّمتِ الحضارةُ الإسلاميةُ في الأندلسِ نَموذجًا يُحتذى بهِ للتَّعايشِ الإيجابيِّ بينَ أتباعِ دياناتِ التوحيدِ الثلاثةِ: الإسلامِ والمسيحيةِ واليهوديةِ، وذلكَ على النقيضِ ممَّا فَعلَهُ الاستِعْمارُ الغَرْبيُّ في العصرِ الحديثِ مِن تَخريبٍ وتَدميرٍ وسَلبٍ ونهبٍ لثَرَواتِ بلادِ المسلمينَ، وتَطْبيقٍ لسياسةِ «فَرِّقْ تَسُدْ»؛ لِضمانِ استمرارِ بقائهِ في احتلالِ تلكَ البلادِ.

وهُناكَ جانبٌ آخرُ يَتَّصلُ بموضوعِ الإرهابِ؛ وهوَ الخلطُ الواضحُ في التَّصوراتِ الغربيةِ بين الإرهابِ وحقِّ الشعوبِ المظلومةِ في الدفاعِ عن حُقوقِها المشروعةِ، وهَذا حَقٌّ تَكْفُلُهُ القوانينُ الدوليةُ.

وانْطلاقًا من هَذا الخلطِ الغريبِ أصبحَ يُنظَرُ إلى الضحيةِ على أنَّهُ إرهابيٌّ -كَما هوَ الحالُ معَ الشعبِ الفلسطينيِّ- وينظرُ إلى إرهابِ الدَّولةِ -كما في حالةِ إسرائيلَ- على أنَّهُ دِفاعٌ عَنِ النَّفسِ، وفَضْلًا عَنْ ذَلكَ؛ فإنَّ الحَرْبَ على الإرهابِ يُسَاءُ استغْلالُها، وتُتَّخَذُ سِتَارًا لتخويفِ شُعوبِ العالَمِ مِنْ هَذا الخطرِ المُدَمِّرِ للعالمِ كُلِّهِ؛ حتَّى يَظَلَّ العَالَمُ يَعيشُ تَحْتَ وَطْأةِ الرُّعْبِ الإرهابيِّ، وذلك مِنْ أَجْلِ تَحقيقِ أطماعِ الهَيْمَنَةِ عَلى العالمِ، والاسْتِيلاءِ على مَصادرِ ثَرَواتِ الشُّعوبِ النَّاميةِ.

وَمِنَ الطَّبيعيِّ في ظِلِّ هَذهِ الظُّروفِ المُعَقَّدةِ أَن يُؤَدِّيَ ذَلكَ كُلُّهُ إلى ضَيَاعِ الثِّقةِ بَيْنَ العالمِ الإسلاميِّ وَالغَرْبِ، ولَكِنَّ العالمَ الإسلاميَّ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ يُدْرِكُ تَمامًا أَنَّه لا يجوزُ تحميلُ الغربِ ككلٍّ مسئوليَّةَ هذه الظُّروفِ جميعِها؛ فهناك دُوَلٌ غربيةٌ لها وِجهاتُ نظرٍ مختلِفةٌ، ومواقفُ مُعارِضةٌ لبعضِ هذه السِّياساتِ الغربيَّةِ إزاءَ العالَمِ الإسلاميِّ، والحربُ على العراقِ أقربُ مِثالٍ على ذلك.

ومِن هنا يُمكِنُ القولُ بأنَّه إذا كانَتِ الثِّقةُ بينَ الجانبَينِ قد تَصدَّعَت على نحوٍ مُخيفٍ فإنَّه لم يَتِمَّ القضاءُ عليها نهائيًّا.

والدَّليلُ على ذلك استمرارُ التَّواصُلِ الثَّقافيِّ بينَ العالَمِ الإسلاميِّ والغربِ، والحوارُ الدَّائرُ بينَهما في مجالاتٍ عديدةٍ، الأمرُ الَّذي يجعلُ استعادةَ الثِّقةِ بينَ الجانبَينِ أمرًا غيرَ مستحيلٍ.

رابعًا: مُعوِّقاتُ استعادةِ بِناءِ الثِّقةِ:

لا شكَّ في أنَّ الطَّريقَ لاستعادةِ الثِّقةِ بينَ الجانبَينِ ليسَ طريقًا مفروشًا بالورودِ والرَّياحينِ؛ فهناك عَقَباتٌ حقيقيَّةٌ تُعرقِلُ جهودَ استعادةِ الثِّقةِ بينَ العالَمِ الإسلاميِّ والغربِ، ومِن أهمِّ هذه العَقَباتِ الأمورُ التَّاليَّةُ:

١- صورةُ العدوِّ المتبادَلةُ:

لا جِدالَ في أنَّ هذه الصُّورةَ السَّلبيَّةَ المتبادَلةَ كانَت موجودةً دائمًا بدَرَجاتٍ متفاوتةٍ منذُ أن بَدَأَتِ الصِّراعاتُ المسلَّحةُ بينَ الجانبَينِ، ولكنَّها معَ ذلك لم تكُن أبدًا بهذا الحجمِ الَّذي وصَلَت إليه اليومَ في عصرِ ثورةِ المعلوماتِ والاتِّصالاتِ والثَّورةِ التِّكنولوجيَّةِ؛ ممَّا جَعَلَ نشرَ هذه الصُّورةِ السَّلبيَّةِ على نِطاقٍ واسعٍ أمرًا ليسَ له مثيلٌ في أيِّ عصرٍ مِن عصورِ التَّاريخِ.

لقَد تَعاوَنَ الغربُ قبلَ نهايةِ الحربِ الباردةِ معَ الإسلامِ في مكافحةِ الشُّيوعيَّةِ؛ فإذا كانَ الغربُ يَمقُتُ الشُّيوعيَّةَ فإنَّ الإسلامَ والشُّيوعيَّةَ نقيضانِ لا يَجتمِعانِ، ومِن هنا كانَ التَّعاوُنُ بينَ الجانبَينِ تعاونًا وثيقًا في هذا الصَّدَدِ.

ولكن بعدَ انهيارِ الشُّيوعيَّةِ وطَردِ الشُّيوعيِّينَ مِن أفغانستانَ تَغيَّرَ الموقفُ بنحوِ مِائَةٍ وثمانين درجةً؛ فقد بدأَ الغربُ يتحدَّثُ عن صورةِ العدوِّ الأخضرِ المتمثِّلِ في الإسلامِ بديلًا عن العدوِّ الأحمرِ.

وبدأَ الحديثُ على نِطاقٍ واسعٍ عن الأصوليَّةِ الإسلاميَّةِ والإرهابِ الإسلاميِّ، على الرَّغمِ مِن أنَّ الإرهابَ ظاهرةٌ عالميَّةٌ، وليسَ لها أدنى صلةٍ بالإسلامِ كدينٍ، وارتفَعَت أصواتٌ عديدةٌ، وظَهَرَت مؤلَّفاتٌ كثيرةٌ في الغربِ تَتحدَّثُ عن الخطرِ الإسلاميِّ، وبدا الأمرُ كما لو أنَّ العالَمَ قد استيقظَ فجأةً لِيَرى أمامَه دِينًا جديدًا غريبًا يَعمَلُ على تهديدِ العالَمِ.

والغريبُ في الأمرِ أنَّ الجماعاتِ الَّتي حَظِيَت بالدَّعمِ الغربيِّ، وبخاصَّةٍ الدَّعمُ الأمريكيُّ في أفغانستانَ لمحاربةِ الشُّيوعيَّةِ، هي نفسُها الَّتي انقلَبَت إلى جماعاتٍ إرهابيَّةٍ لأسبابٍ سياسيَّةٍ لا صلةَ لها بالإسلامِ الَّذي هو دِينُ السَّلامِ.

٢- التَّنبُّؤُ بصراعِ الحضاراتِ:

وتأكيدًا ودعمًا لصورةِ العدوِّ المتبادَلةِ راجَت منذُ العَقدِ الأخيرِ مِن القرنِ الماضي دَعوى صِدامِ الحضاراتِ، وتَنبَّأَ «هنتنجتون» بالصِّدامِ بينَ الحضارتَينِ الإسلاميَّةِ والغربيَّةِ؛ وهذا يَعني أنَّ إمكانيَّةَ الصِّدامِ الحضاريِّ تَفوقُ إمكانيَّةَ الحوارِ الحضاريِّ، وأنَّ الصِّدامَ لا محالةَ قادمٌ، ويجبُ الاستعدادُ له بكلِّ الوسائلِ.

ويُذكِّرُنا تَنبُّؤُ «هنتنجتون» بما ذَهَبَ إليه الفيلسوفُ الإنجليزيُّ «توماس هوبز» مِن أنَّ الإنسانَ ذئبٌ بالنِّسبةِ لأخيهِ الإنسانِ، وأنَّ الكلَّ في حربٍ ضدَّ

الكلِّ، وبذلك يَضَعُ «هنتنجتون» مزيدًا مِن الزَّيتِ على النَّارِ لإشعالِ مزيدٍ مِن الكراهيةِ والتَّوجُّسِ والخوفِ مِن الإسلامِ في العالَمِ الغربيِّ.

وعلى الرَّغمِ مِن أنَّ هذه الدَّعوى لا تَستنِدُ إلى أساسٍ علميٍّ أو واقعيٍّ يَدعَمُها؛ فإنَّ التَّرويجَ لها على نِطاقٍ واسعٍ عن طريقِ وسائلِ الإعلامِ يُمكِنُ أن يَجعَلَها تَتحوَّلُ بسُهولةٍ إلى أن تُصبِحَ أمرًا واقعيًّا.

وهذا هو مَكمَنُ الخطرِ؛ فالتَّرويجُ لهذا الصِّدامِ الكونيِّ المزعومِ يُمكِنُ -كما يقولُ عالِمُ اللَّاهوتِ الألمانيِّ «هانز كونج»- أن يَعمَلَ على خَلقِ جوٍّ مِن الخوفِ والرُّعبِ، يَستخدِمُهُ أصحابُ المصالحِ في تحقيقِ أغراضِهِم الَّتي هي بالقطعِ أغراضٌ مُناقِضةٌ لجهودِ السَّلامِ.

ولنا هنا وَقفةٌ ضروريَّةٌ تعقيبًا على دَعوى صِدامِ الحضاراتِ:

إنَّ الحضاراتِ تُشكِّلُ التَّقدُّمَ المادِّيَّ والرُّوحيَّ للإنسانيَّةِ -كما يقولُ «ألبرت شفيتسر» أيضًا- إنَّها تَعني التَّسامُحَ وقَبولَ الآخَرِ والانفِتاحَ على كلِّ الحضاراتِ والثَّقافاتِ والأديانِ؛ ومِن أجلِ ذلك فإنَّها تُمثِّلُ حصونَ الإنسانيَّةِ ضدَّ النِّزاعاتِ العبثيَّةِ والمُدمِّرةِ، ولكنَّها بالقطعِ ليسَت سببًا لها؛ لأنَّ هدفَ الحضاراتِ الحقيقيَّ هو بِناءُ نظامٍ يَضمَنُ للإنسانيَّةِ العدلَ والأَمنَ والاستقرارَ.

إنَّ أسبابَ النِّزاعاتِ ليسَت -كما يَزعُمُ «هنتنجتون»- في اختلافِ الحضاراتِ؛ فالصِّداماتُ تَنشَأُ أيضًا داخلَ الحضارةِ الواحدةِ، مِثلَ ما حَدَثَ ذلك في الحَربَينِ العالَمِيَّتَينِ في النِّصفِ الأوَّلِ مِن القرنِ الماضي.

والأمرُ الجديرُ بالذِّكرِ هنا أنَّ ضحايا هاتَينِ الحَربَينِ داخلَ الحضارةِ الأوروبِّيَّةِ الواحدةِ قد زادَ على ستِّينَ مِليونًا مِن البَشَرِ، وذلك خلالَ نحوِ عَشرِ سَنَواتٍ فقط (من ١٩١٤م - ١٩١٨م، ومن ١٩٣٩ - ١٩٤٥م)، في حينِ أنَّ أعدادَ ضحايا الحروبِ الَّتي دارَت بينَ أوروبَّا والإسلامِ على مَدى أربعةَ عَشَرَ قرنًا مِن الزَّمانِ تُعَدُّ بالنِّسبةِ إلى ذلك بمثابةِ قطرةٍ في بحرٍ، ولا وَجهَ للمُقارنةِ بينَها وبينَ ضَحايا الحَربَينِ العالَميَّتَينِ.

ومِن هنا فإنَّه إذا حَدَثَت صِداماتٌ بينَ الحضاراتِ فإنَّه يَتحتَّمُ البحثُ عن أسبابٍ أُخرى لذلك غيرِ الحضاراتِ ذاتِها؛ فقد تكونُ الأسبابُ مُتمثِّلةً في السَّعيِ للسَّيطرةِ السِّياسيَّةِ لبعضِ أصحابِ المَصالحِ، أو الهيمنةِ لبعضِ القُوى العالميَّةِ على مُقدَّراتِ العالَمِ، أو السَّعيِ للحصولِ على مَصالِحَ مادِّيَّةٍ، أو غيرِ ذلك مِن أسبابٍ أُخرى مُشابِهةٍ، كما هو ماثِلٌ للعِيانِ في عالَمِ اليومِ.

والإسلامُ على كلِّ حالٍ دِينٌ يَرفُضُ دَعوى الصِّدامِ بينَ الحضاراتِ، ويَدعو إلى الحوارِ بينَها، ويُؤكِّدُ ذلك القرآنُ الكريمُ حينَ يَتحدَّثُ عن الاختلافاتِ بينَ

الشُّعوبِ والعَلاقاتِ فيما بينَها: [يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا] [الحجرات:١٣].

لقَد أَثْبَتَت لنا الحَربانِ العالَميَّتانِ في القرنِ الماضي مَدى عَبَثيَّةِ الحروبِ؛ فالحروبُ لا تَحُلُّ المُشكِلاتِ، بل تُؤدِّي إلى تَفاقُمِ المُشكِلاتِ، وإلى تَدميرٍ لا مَعنى له، وعَلينا أن نَتَعلَّمَ مِن دُروسِ التَّاريخِ؛ حتَّى لا نُكرِّرَ نفسَ الأخطاءِ مرَّةً أُخرى.

٣- التجاهلُ وعدمُ الاكتراثِ على الجانبِ الغربيِّ:

يتعلَّقُ هذا التجاهلُ بالأحداثِ المتلاحقةِ في العالَمِ الإسلاميِّ بصفةٍ خاصةٍ، والأسبابِ التي تقِفُ وراءَ حدوثِها، والجهودِ التي يجِبُ أن تُبذلَ لمواجهتِها. ونتائجُ هذا التجاهلِ تتمثَّلُ في المواقفِ الخاطئةِ وسوءِ الفَهمِ لعالَمِنا الذي كان يُفترضُ أن يكونَ عالمًا جديدًا وجذَّابًا، ولكنَّه في حقيقةِ الأمرِ صار عالَمًا مرعبًا ومخيفًا، وذلك بالنسبةِ لضحاياهُ على كلِّ حالٍ.

لقد كان مِن نتيجةِ هذا التجاهلِ وعدمِ الاكتراثِ على الجانبِ الغربيِّ تلك الإبادةُ الجماعيةُ التي حدَثَت للمسلمينَ في البوسنةِ في العقدِ الماضي في أماكنَ كانت تحميها قواتٌ دوليةٌ، وكان يُمكِنُ منعُ تلك المذابحِ الجماعيةِ لو كان هناك أدنى قَدرٍ مِن الاهتمامِ بمصيرِ هؤلاء البشرِ.

وما يحدثُ اليومَ في فلسطين مِن قتلٍ وتشريدٍ وتدميرٍ للبشرِ والمنازلِ والمزارعِ والأشجارِ وكلِّ وسائلِ الحياةِ تحتَ سمعٍ وبصرِ العالَمِ، وبصفةٍ خاصةٍ تحتَ سمعٍ وبصرِ القوى الفعَّالةِ في العالَمِ على الجانبِ الغربيِّ- أمرٌ يفوقُ التصوُّرَ.

لقد تحرَّكَت كلُّ هذه القوى الفاعلةِ لحمايةِ سكانِ تيمور الشرقيةِ وحمايةِ استقلالِها عن إندونيسيا. فلماذا تتجاهلُ هذه القوى ثلاثةَ مليونِ فلسطينيٍّ يعيشون في سجنٍ كبيرٍ دونَ حمايةٍ دوليةٍ. أليس هذا أمرًا يثيرُ الكثيرَ مِن علاماتِ الاستفهامِ؟

٤- محاولةُ فَرضِ العَولمةِ بخيرِها وشرِّها:

لا شكَّ أنَّ العولمةَ بجوانبِها الاقتصاديةِ والسياسيةِ والثقافيةِ تشتمِلُ على بعضِ الإيجابياتِ، ولكنَّها تشتمِلُ في الوقتِ نَفْسِه على بعضِ السلبياتِ. ومِن حقِّ العالَمِ الإسلاميِّ -ولدَيه رصيدٌ حضاريٌّ يعرِفُه التاريخُ- أن يكونَ له الحقُّ في اختيارِ ما يراهُ مناسبًا له مِن هذه العولمةِ، ومِن حقِّه أيضًا أن يرفُضَ ما لا يناسبُه. فهذا أبسطُ حقوقِ الإنسانِ.

ولكن هناك محاولاتٌ غربيةٌ لفرضِ النُّظمِ والقيمِ الغربيةِ على العالَمِ الإسلاميِّ دونَ اكتراثٍ بما إذا كان ذلك يتَّفِقُ أو لا يتَّفِقُ مع ما للمسلمينَ مِن معتقداتٍ دينيةٍ وأخلاقيةٍ وتقاليدَ مَرعيةٍ. فالتمايزُ الحضاريُّ أمرٌ مقرَّرٌ منذُ فجرِ التاريخِ، ولا يجوزُ إجبارُ شعبٍ مِن الشعوبِ على تبنِّي قيمِ شعبٍ آخَرَ.

وعلى سبيلِ المثالِ يُعابُ على العالَمِ الإسلاميِّ محاربتُه للشذوذِ الجنسيِّ، ويُرادُ له أن يوقِفَ العملَ بنصوصٍ قطعيةٍ في القرآنِ الكريمِ، وغيرِ ذلك مِن مطالبَ غربيةٍ. أليس ذلك ضدَّ حُريةِ الإنسانِ وحقوقِه فردًا كان أو جماعةً؟

٥- استخدامُ القوَّةِ بدلًا مِن الحوارِ:

وقد تجلَّى ذلك بوضوحٍ في حربِ العراقِ، وعلى الرغمِ مِن كلِّ مساوئِ النظامِ العراقيِّ السابقِ ورفضِنا له فليس هناك أيُّ مسوِّغٍ لاستخدامِ القوةِ ضدَّ دولةٍ ما دونَ تفويضٍ بذلك مِن المنظَّمةِ الدوليةِ. وإلا فسيصبِحُ العالَمُ فوضى تتصرَّفُ كلُّ دولةٍ فيه كما تشاءُ دونَ اكتراثٍ بالقانونِ الدوليِّ.

والحوارُ هو السبيلُ القويمُ لحلِّ المشكلاتِ، والعنفُ هو آخِرُ دواءٍ يُمكِنُ استخدامُه، ولكن بتصريحٍ مِن المنظَّمةِ الدوليةِ. وما يقالُ عن العراقِ يقالُ بالنسبةِ لفلسطينَ، ففي الوقتِ الذي يرفُضُ فيه الرأيُ العامُّ الغربيُّ العملياتِ الاستشهاديةَ الفلسطينيةَ بوصفِها إرهابًا ينبغي أن يقيمَ الغربُ موازينَ العدلِ -وهو الذي يذكِّرُنا دائمًا بحقوقِ الإنسانِ- فيوقِفَ إرهابَ دولةِ إسرائيلَ الذي يستخدِمُ أحدثَ ما عرَفَته الآلةُ العسكريةُ ضدَّ شعبٍ لا يملِكُ إلا الحجارةَ والأسلحةَ الخفيفةَ.

خامسًا: إعادةُ بناءِ الثِّقةِ بينَ العالَمِ الإسلاميِّ والغربِ:

وعلى الرغمِ مِن كلِّ ما سبَقَ فإنَّنا لَسنا مع القطيعةِ مع الغربِ على الإطلاقِ. لقد أرَدنا أن نضَعَ بعضَ النقاطِ على الحروفِ دونَ مجاملاتٍ فارغةٍ لا تغني شيئًا. إنَّنا في عصرٍ أصبَحَ فيه العالَمُ يعيشُ في قريةٍ كونيةٍ كبيرةٍ، كما يقالُ دائمًا.

ومِن هنا فنحنُ مع التقاربِ مع الغربِ ومع الحوارِ والتعاونِ في جميعِ المجالاتِ مِن أجلِ خيرِ هذا العالَمِ الذي هو عالَمُنا جميعًا.

وأعتقدُ أنَّه قد أصبَحَ واضحًا ممَّا عرَضناهُ حتى الآنَ كيف يُمكِنُ إعادةُ بناءِ الثِّقةِ بينَ العالَمِ الإسلاميِّ والغربِ، فالعقباتُ القائمةُ التي تحدَّثنا عنها ينبغي إزالتُها حتى يُمكِنَ بناءُ الثِّقةِ على أُسسٍ سليمةٍ. وإذا جازَ لنا أن نُجمِلَ الشروطَ التي ينبغي مراعاتُها عند إعادةِ بناءِ الثِّقةِ بينَ الجانبينِ- فإنَّنا ننبِّهُ إلى الأمورِ التاليةِ:

١- التخلِّي عن نظرةِ الاستعلاءِ إزاءَ الآخَرِ:

والبُعدُ عن النَّظرِ إليه مِن مُنطلَقِ الهيمنةِ وغطرسةِ القوَّةِ، وهذا يعني الاحترامَ المتبادلَ وتفهُّمَ مواقفِ الطَّرفِ الآخَرِ واحترامَ خصوصياتِه الحضاريةِ على أساسٍ مِن النِّدِّيةِ والمساواةِ.

إنَّ التعرُّفَ الحقيقيَّ على الآخَرِ -ونعني هنا التعرُّفَ على العالَمِ الإسلاميِّ مِن جانبِ الغـربِ- وعلى حضارةِ المسلمينَ مِن شأنِه أن يؤدِّيَ إلى تأكيدِ قيمةِ التسامحِ الإيجابيِّ نحوَهم، وليس مجرَّدَ التسامحِ الحياديِّ، وهذا يعني الإقرارَ بالتعدديةِ الحضاريةِ، ويعني أيضًا احترامَ حضارةِ الآخَرِ وثقافتِه مهما كان مستواهُ مِن الرُّقيِّ الماديِّ؛ لأنَّ احترامَ الآخَرِ والتعرُّفَ عليه مِن شأنِه أن يؤدِّيَ إلى تفهُّمِ كلِّ الظروفِ المحيطةِ به، ومِن شأنِه كذلك أن يقضيَ على الكثيرِ مِن الأحكامِ المسبَّقةِ والمفاهيمِ المغلوطةِ على كلا الجانبينِ.

وبناءً على ذلك نستطيعُ أن نقولَ: إنَّ النَّظرةَ الاستعلائيةَ أو عقدةَ التفوقِ والأفضليةِ في الجنسِ أو اللَّونِ أو المستوى الحضاريِّ قد أصبَحت نظرةً مُتحفيةً تنتمي إلى الماضي، ولم تعُد تتناسَبُ بأيِّ حالٍ مِن الأحوالِ مع عالَمِنا المعاصرِ.

٢- التخلِّي عن أطماعِ الهيمنةِ الاستعماريةِ:

والتخلِّي عن الاستيلاءِ على مصادرِ الثرواتِ البترولية لبلادِ العالَمِ الإسلاميِّ، وإملاءِ صيغِ الإصلاحِ الجاهزةِ على المجتمعاتِ الإسلاميةِ؛ فإنَّ كلَّ أُمَّةٍ لها ظروفُها الخاصةُ ولها خصوصياتُها التي تعتَزُّ بها. والتمايزُ الحضاريُّ لم يكُن في يومٍ مِن الأيامِ عقبةً في سبيلِ التفاعلِ والتواصلِ بينَ الحضاراتِ.

ومِن أجلِ ذلك لا توجَدُ حضارةٌ إنسانيةٌ عريقةٌ نمَت وتطوَّرَت دونَ أن تتأثَّرَ بغيرِها مِن الحضاراتِ؛ فالتراثُ الإنسانيُّ أخذٌ وعطاءٌ، ولا توجَدُ أُمَّةٌ عريقةٌ في التاريخِ إلَّا وقد أعطَت كما أخَذَت مِن هذا التراثِ، ولم تشِذَّ حضارةٌ مِن الحضاراتِ الكبيرةِ عن هذه القاعدةِ.

وإنَّ محاولةَ حضارةٍ مِن الحضاراتِ الهيمنةَ على الأُخرى وفرضَ قيَمِها ونُظمِها على هذه الحضاراتِ، وإلغاءَ خصوصياتِها ومحوَ ذاتيَّتِها أمرٌ يُعدُّ ضدَّ طبيعةِ الأشياءِ، ويُعدُّ جنايةً على الشعوبِ المنضويةِ تحتَ هذه الحضاراتِ، لأنَّها ستجِدُ نَفْسَها بلا هويَّةٍ وستجِدُ نَفْسَها مقطوعةَ الجذورِ، وفي الوقتِ نَفْسِه لا تنتمي إلى حضارةِ الآخَرينَ، وفي ذلك قتلٌ للشخصيةِ الحضاريةِ للأُمَّةِ المعتدَى على خصوصياتِها لصالحِ الحضارةِ الساعيةِ للهيمنةِ.

٣- اللجوءُ إلى الحوارِ بدلًا مِن العنفِ:

فالعنفُ لايولِّدُ إلا العنفَ، أمَّا الحوارُ فهو اللُّغةُ الحضاريةُ التي تليقُ بالبشرِ، وهو الأسلوبُ الأمثلُ لحلِّ كلِّ المشكلاتِ، وتفادِي الكثيرِ مِن الشرورِ والدَّمارِ

الذي يسبِّبُه اللجوءُ إلى العنفِ. ولن يكونَ هناك حوارٌ مثمِرٌ إلَّا إذا كان كلُّ طرفٍ لدَيه استعدادُ الاستماعِ إلى الطرفِ الآخَرِ والتفكيرِ فيما يطرَحُه مِن تصوُّراتٍ -كما سبَقَ أن أشَرنا في بدايةِ هذا البحثِ- وكذلك الاستعدادُ لممارسةِ النقدِ الذاتيِّ، والبُعدِ عن التنديدِ بالآخَرِ أو التقليلِ مِن شأنِه، والسعيِ إلى التوصُّلِ- مِن خلالِ الحوارِ- إلى رؤًى ومعاييرَ مشتركةٍ تفتَحُ السُّبلَ إلى تعاونٍ مشتركٍ، لا مِن أجلِ مصالحِنا المشتركةِ فحسبُ، إنَّما مِن أجلِ سلامِ هذا العالَمِ واستقرارِه. وبذلك يُمكِنُ التصدِّي لكلِّ شكلٍ مِن أشكالِ العنفِ والمواقفِ السلبيةِ.

وإذا أرَدنا أن نكافِحَ الإرهابَ بطريقةٍ فعَّالةٍ فإنَّ علينا أن نعالجَ هذا الموضوعَ مِن جذورِه وليس مِن السطحِ الخارجيِّ؛ فالعلاجُ السطحيُّ مِن شأنِه أن يطيلَ دائرةَ العنفِ والعنفِ المضادِّ.

والأسلوبُ الأمثلُ لعلاجِ مشكلةِ الإرهابِ هو البحثُ عن الأسبابِ الحقيقيةِ المولِّدةِ للإرهابِ، ومعالجةُ هذه الأسبابِ بطريقةٍ جذريةٍ تسيرُ جنبًا إلى جنبٍ مع الحربِ المُعلَنةِ على الإرهابِ، كما ينبغي التفرقةُ الحاسمةُ بينَ الإرهابِ الذي هو عدوانٌ مرفوضٌ وبينَ الكفاحِ المشروعِ للشعوبِ في سبيلِ حقوقِها المشروعةِ؛ فالخلطُ بينَ الأمرينِ خلطٌ ظالمٌ وغيرُ مسوَّغٍ؛ لا مِن وجهةِ النَّظرِ الأخلاقيةِ ولا مِن وجهةِ نَظرِ القوانينِ الدَّوليةِ.

٤- التركيزُ على القواسمِ المشتركةِ:

ينبغي أن يستقِرَّ في وعيِ الجانبينِ أنَّ ما يجمَعُ بينَ العالَمِ الإسلاميِّ والغربِ مِن قواسمَ مشتركةٍ أكثرُ ممَّا يفرِّقُ بينهما، وعلى سبيلِ المثالِ فإنَّ أوربا والبلادَ الإسلاميةَ في الشرقِ يربِطُ بينهما جغرافيا البحرِ الأبيضِ المتوسِّطِ، فهما جيرانٌ لبعضِهما البعضِ، ويشترِكانِ لذلك في المصلحةِ المشتركةِ لاستقرارِ وضمانِ أمنِ بلادِهما.

ولكن هناك سببٌ آخرُ هامٌّ يجمَعُ بينهما، يتمثَّلُ في الخلفيةِ الحضاريةِ والتي تتمثَّلُ فيما يربِطُ بينهما مِن تاريخٍ طويلٍ مِن التأثيرِ الحضاريِّ المتبادلِ. وعلى الرغمِ مِن الأثرِ الحضاريِّ الواضحِ للحضارةِ الإسلاميةِ على الحضارةِ الأوربيةِ في العصورِ الوسطى بفضلِ ترجمةِ العلومِ الإسلاميةِ إلى اللغةِ اللاتينيةِ في تلك الفترةِ فإنَّ الغربَ في العادةِ يتجاهلُ ذلك ويستنكِفُ -وهو المتفوِّقُ حضاريًّا- أن يعترِفَ بهذه الحقيقةِ ويرُدَّ الفضلَ للحضارةِ الإسلاميةِ التي شهِدَت في القرونِ الأخيرةِ فترةً مِن التراجعِ الحضاريِّ لم تتعافَ منه حتى الآنَ.

وهناك بالإضافةِ إلى ذلك قاسمٌ أساسيٌّ مشتركٌ بينَ العالَمِ الإسلاميِّ والغربِ، فالمسيحيةُ والإسلامُ واللَّذانِ يعدَّانِ القاعدةَ الأساسيةَ لحضارتيهما،

يشتركانِ في نشأتِهما في الشرقِ ويتطابقانِ في رسالتيهِما تطابقًا جوهريًّا. ويشكِّلُ الإيمانُ بالمسيحِ عليه السلامُ وبالإنجيلِ الذي أُنزلَ عليه عنصرًا أساسيًّا مِن عقيدةِ المسلمينَ.

وهذه القواسمُ المشتركةُ أو نقاطُ الالتقاءِ بينَ حضارةِ الغربِ وحضارةِ الشرقِ الإسلاميِّ تُثبِتُ بوضوحٍ بطلانَ مقولةِ الأديبِ الإنجليزيِّ المعروفِ «كبلنج» (Kipling) (ت. ١٩٣٦م) التي يقول فيها: «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا»، كما تثبِتُ فسادَ تنبؤِ «هنتنجتون» بحتميةِ الصدامِ بينَ حضارةِ الشرقِ وحضارةِ الغربِ.

وقد وجَدَ الشاعرُ الألمانيُّ «جوته» (Goethe) (ت. ١٨٣٢م) كثيرًا مِن القواسمِ المشتركةِ التي تربِطُ بينَ الشرقِ والغربِ، وعبَّرَ عن ذلك في «الديوانِ الشرقيِّ الغربيِّ» بقولِه: «للَّهِ المشرقُ وللَّهِ المغربُ، وفي راحتيهِ الشَّمالُ والجنوبُ جميعًا، فالكلُّ منه وإليه».

ويقولُ جوته أيضًا: «مِن حماقةِ الإنسانِ في دنياهُ أن يتعصَّبَ كلٌّ منَّا لما يراهُ، وإذا كان الإسلامُ معناهُ التسليمُ للهِ فإنَّنا جميعًا نحيا ونموتُ مسلمينَ».

٥- عدمُ إغفالِ الجوانبِ السياسيةِ والاقتصاديةِ والعسكريةِ:

لا ينبغي أن يُنسيَنا الحماسُ والأملُ في عودةِ الثِّقةِ بينَ الجانبينِ إلى مجاريها الطبيعيةِ- بعضَ العناصرِ الأخرى التي لها أهميَّتُها البالغةُ في هذا الصَّددِ، فالأمرُ لا يتعلَّقُ فقط بالجوانبِ الدينيةِ والحضاريةِ، بل يتعلَّقُ أيضًا -بالإضافةِ إلى ذلك- بجوانبَ سياسيةٍ واقتصاديةٍ وعسكريةٍ. ومِن الضروريِّ مناقشةُ كلِّ هذه الجوانبِ في إطارِ حوارٍ يتِمُّ في صراحةٍ ووضوحٍ يراعي مصالحَ كلِّ الأطرافِ، بعيدًا عن كلماتِ المجاملةِ الفارغةِ والعباراتِ الدبلوماسيةِ المنمَّقةِ التي لا تُجدي شيئًا في مثلِ هذه الأحوالِ.

خـاتمـــةٌ:

وفي ختامِ حديثِنا نوَدُّ التأكيدَ على أنَّ استعادةَ الثِّقةِ بينَ العالَمِ الإسلاميِّ والغربِ أمرٌ لا يأتي تلقائيًّا، أو بقراراتٍ تصدُرُ هنا أو هناك، أو مِن خلالِ مؤتمراتٍ تصدُرُ عنها توصياتٌ بذلك.

فهناك -بالإضافةِ إلى كلِّ ما عرَضناهُ- عواملُ نفسيةٌ لها دَورُها الذي لا يجوزُ تجاهلُه، فالمواطنون في الغربِ يشعرون -سواءٌ أكان هذا الشعورُ وَهمًا أم حقيقةً- بأنَّهم مهدَّدون مِن جانبِ المسلمينَ، على الرغمِ مِن التفوقِ الغربيِّ في جميعِ المجالاتِ تقريبًا. والمسلمون بدَورِهم يشعرون أيضًا بالخوفِ مِن

الاغترابِ الثقافيِّ، وبجروحٍ نفسيةٍ عميقةٍ ترجِعُ إلى عصورٍ مِن تجاربِ القهرِ والإذلالِ مِن جانبِ البلدانِ الغربيةِ، وبخاصةٍ فيما يتعلَّقُ بالقضيةِ الفلسطينيةِ.

ومعالجةُ ذلك كلِّه في حاجةٍ إلى تفهُّمِ كلِّ جانبٍ لمشاعرِ الطرفِ الآخَرِ، والتحلِّي بالصبرِ والهدوءِ، وعقلنةِ هذه المشاعرِ، والتمسُّكِ بالموضوعيةِ في الحوارِ.

ونعتقِدُ أنَّ مِن الأمورِ التي يُمكِنُ أن تساعدَ على استعادةِ الثِّقةِ بينَ الجانبينِ أن تقومَ أوربا - التي لدَيها خبرةٌ طويلةٌ بمشكلاتِ العالَمِ الإسلاميِّ- بمحاولةِ استعادةِ شكلٍ ما مِن أشكالِ التوازنِ الدوليِّ، فمنذُ انهيارِ الاتِّحادِ السوفيتيِّ- الذي كان يشكِّل عنصرًا لا يُمكِنُ تجاهلُه في التوازنِ الدَّوليِّ- أصبح هناك فراغٌ في السياسةِ الدوليةِ، ولم يعُد هناك وجودٌ لما يُسمَّى بالتوازنِ الدَّوليِّ . وقد انعكسَ ذلك بالسلبِ على المنظَّماتِ الدَّوليةِ.

ولا شكَّ في أنَّ انفرادَ قوَّةٍ ما في العالَمِ باتِّخاذِ قراراتٍ أُحاديةِ الجانبِ تتجاوزُ المنظَّماتِ الدَّوليةَ وتنتهِكُ القانونَ الدَّوليَّ- لن يكونَ في مصلحةِ السلامِ العالميِّ، والحربُ في العراقِ أقربُ مثالٍ على ذلك، والعالَمُ اليومَ في أشدِّ الحاجةِ إلى الإصغاءِ لصوتِ العقلِ والمنطقِ؛ للحدِّ مِن اندفاعِ القوَّةِ العُظمى إلى اتِّخاذِ مواقفَ وقراراتٍ بعيدةٍ عن المنظَّماتِ الدَّوليةِ، يُمكِنُ أن تؤدِّيَ إلى كارثةٍ عالميةٍ لا يعلَمُ مداها إلَّا اللَّهُ.

* * *